

نظام التبادل عند بعض القبائل البدائية قراءة في الإرث الأنثروبولوجي

زهرة عباس

طالبة دراسات عليا، كلية العلوم الاجتماعية، مستغانم-الجزائر.

مقدمة

إن كل نظام اجتماعي هو جزء من وحدة متناسقة، ولا يمكن فهم هذا النظام إلا إذا درس في ضوء علاقته بالكل، وبذلك يكون على الباحث- من وجهة النظر الوظيفية- أن يأخذ في الحسبان عاملين أساسيين يلعبان دورا تبادليا وفاعلا في هذا النظام الاجتماعي أو ذلك، وهما: النموذج الذي يعرفه الأفراد ويؤثر في سلوكهم من جهة، والثقافة التي ينشئون عليها والتي تعنى بتلبية الحاجات الكلية للمجتمع من جهة أخرى، وذلك لأن الأنظمة الاجتماعية لا يمكن أن تؤدي وظيفتها إلا كجزء من المجموع الكلي للثقافة.

فقد كانت المجتمعات البدائية تعتمد في اقتصادها على الإنتاج والاستهلاك، سواء في الأسرة أو القبيلة مما يحقق الاكتفاء الذاتي حيث كانت تسد معظم حاجياتها بفضل التبادل مع الجماعات الأخرى، وتتميز هذه القبائل البدائية بنظام اقتصادي يعرف بتبادل الهدايا و المقايضة، وهو ما التمسناه عند قراءتنا للإرث الأنثروبولوجي من خلال ما توصل إليه الإثنوغرافيين عند دراستهم لمجموعة من القبائل البدائية.

قبائل جزر محيط الهادي و شمال الغرب الأمريكي

بولينيزيا وميلانيزيا وهما قبائل تسكن جزر المحيط الهادي إضافة إلى قبائل شمال الغرب الأمريكي، قام بدراستها مارسيل موس⁽¹⁾ من خلال معاشته لهذه القبائل مع بعض الأدلة المكتملة من الآداب الرومانية المبكرة والهندوسية والجرمانية، وكان هدفه دراسة الشكل القديم للتبادل والتزاماته الثلاثة (العطاء، القبول، ورد العطاء)،

وكان سؤال البداية التي انطلق منه هو: لماذا يكون الرد على الهدية بالهدية ملزما رغم أن العملية برمتها، تبدو في الظاهر على الأقل قائمة على المجانية وحرية قبولها أو الرد عليها؟ وكشف عن نظام **البوتلاتش** الذي يركز في أساسه على أن يقوم الشخص من ذوي المكانة والمركز الاجتماعي في هذه القبائل بتوزيع نوع معين من الأغذية الصوفية على الضيوف في حفل رسمي كبير، وبعد فترة من الزمن يرد الضيوف هذه الأغذية في حفل رسمي كبير أيضاً بعد مضاعفة ما أخذوه منه في الأصل.⁽¹⁾

وهذا التبادل الذي يتم بين أفراد المجموعة تصاحبه دائماً بعض الطقوس والشعائر، وتعمل هذه الأخيرة على حفظ حقوق أطراف

العلاقة في الأخذ والرد، ولذلك فإنها تحقق الاستقرار الاجتماعي وتدعم أواصر العلاقات بين القبائل. "ويلجأ الأفراد في حفل كبير إلى إحراق هذه الأغذية ذات القيمة الاجتماعية العالية وبعض ممتلكاتهم ليظهروا ترفعهم عن الأشياء المادية ويدعون غيرهم من الأشخاص الذي يحضرون حفل البوتلاتش إلى مجاراتهم، فكلما أحرق أو أتلغ الشخص هذه السلع المادية كلما دع ذلك إلى اكتساب المزيد من الشرف والمكانة الاجتماعية المرموقة. يعتبر نظام البوتلاتش أقدم النظم الاقتصادية في المقايضة والتبادل والتجارة، ويتضمن عنصرين هامين هما القرض والكرامة، والظاهر أن تبادل الهدايا يتم بشكل إرادي إلا أنه يحوي صفة الإلزامية فيه، فمن وجهة نظر موس فالأفراد الذين يشتركون فعلا في عملية التبادل يمثلون القوانين الأخلاقية للجماعة، وفي نفس الوقت تقوي وتعزز هذه القواعد والقوانين."⁽²⁾

تكشف ظاهرة تبادل الهدايا حسب موس، بوصفها "ظاهرة اجتماعية كلية" وتدرس بشموليتها ومحمل أناسها، أي بأبعادها الدينية والقانونية والأخلاقية والاقتصادية، السياسية والمورفولوجية، الجمالية والأسطورية، كما أن الالتزامات المتضمنة المذكورة آنفا يتم التعبير عنها رمزيا مع إعطاء أهمية للموضوع المتبادل. كما يؤكد على أن الموضوعات المتبادلة لا تنفصل كلياً عن البشر الذين يقومون بتبادلها، مما يؤسس لمجتمع مشترك وأحلاف متينة يصعب حلها، وهذا ما هو إلا تعبير مباشر لتجنب الصراع المستمر وبالتالي التحالف والتضامن والسلم.⁽³⁾

وهكذا يتضح لنا مما تقدم أن مارسيل موس حاول أن يدرس التبادل بوصفه أساس الروابط الاجتماعية، ومعرفة أشكاله وتطوراتها وما يتعلق به من أخلاق وقين وقوانين ورموز، كما لم يمنح التجريد النظري أهمية تذكر بالمقارنة مع اهتمامه وتقديره للوقائع الاجتماعية الحية والمعاشة في الواقع اليومي.

إذا كان المفكر الفرنسي قد نجح في تفسير الأسباب الداعية إلى تقديم الهبات، فإنه لم يكن مقنعا في توضيح دواعي إعادتها وهذه النقطة التي أثارها تلميذه كلود ليفي شتراوس، حيث يرى موس أن للأشياء الموهوبة روح تدفعا للعودة إلى مالكة الأصلي، وتحدث عن مفهومين هما "هاو" و"مانا" تمثلان روح الأشياء استقاها من الحكيم تماتي رانايبيري الذي ينتمي إلى شعب الماوري (السكان القدامى لنيوزيلندا)، "فالهاو" يسعى إلى العودة إلى مكان ولادته في الغابة والعشيرة ولدى مالكة على وجه الخصوص، ولهذا الهبات في البوتلاتش تتحرك بشكل دائري لتعود إلى نقطة بدايتها⁽⁴⁾.

فالملفت أن موس اكتفى بنقل تصورات الأفراد الممارسين لهذا النوع من التبادل وتفسيرهم حول عودة الشيء المهدى إلى مالكة الأصلي، ولم يحاول أن يتساءل لماذا كانت تفسيراتهم على هذا النحو؟ فهو بهذا قد تجرد من ثوب السوسولوجيا واكتفى بالوصف الإثنوغرافي، وهنا مربط الفرس الذي أفلته موس! خصوصا أنه لم يكن بمعايشة تلك القبائل وملاحظتها، بل كان مبهورا أيضا بالاطلاع على الآداب الرومانية والهندوسية والجرمانية كما ذكرنا سابقا، لينتقل إلى دور الباحث في اللسانيات والأدب ليعتبر أن الهدية لغة بما تحمله من رموز، وليس هذا بغريب عن موس لأنه يجيد عدة لغات من بينها الإسكندنافية لغة مجتمع البحث، فنجده مهتما بالقصائد والمقاطع الشعرية ولعل ما يفند ذلك أنه وضع كصديرة لمقالته حول الهبة مقاطع شعرية ويقول: "إليك بعض المقاطع الشعرية من "الهفامال" إحدى أقدم القصائد الشعرية من الإدا الإسكندنافية. إنها تصلح أن تكون تصديرا لهذا العمل، وذلك لأهميتها في وضع القارئ بشكل مباشر في جو الأفكار والوقائع التي ستجري في إطاره البرهنة على صحة ما نذهب إليه"⁽⁵⁾.

جزر التروبرياندا وأستراليا

لقد استعان مالينوفسكي^(*) بدراسة مارسيل موس حول الهبة كأساس في دراسته لنظام الكولا، الذي يعني نوعا من الاتفاق والتعاقد عن طريق تبادل الهدايا بين قبائل جزر التروبرياندا Trobriand في المحيط الهادي كما يجارس في بعض جزر مالينزيا وأستراليا.⁽⁶⁾ والكولا نظام شعائري تتبعه بعض القبائل المالينيزية التي تعيش في منطقة جزر واحدة تنتشر على شكل حلقة وتكون دائرة مغلقة للتبادل، وفي نطاق هذه الدائرة يتبادل الملاينزيون بعض السلع ذات القيمة اقتصادية وهي عقود من الأصداف الحمراء وأساور من الأصداف البيضاء.

فكان قبائل التروبرياندا يتداولون "فايغوا" وهي نوع من العملة التي تنقسم إلى نوعان "موالي" وهي عبارة عن سوار جميل منحوت ومصقول من محار البحر ويحمله مالكة أو والداه في المناسبات الكبرى، أما النوع الثاني "سولافا" وهو عقد من الأصداف اللؤلؤية الحمراء، وتحمله النساء بشكل احتفالي والرجال بصفة استثنائية في حالات الاحتضار،⁽⁷⁾ ويوضح موس بأن "فايغوا" مصنفة حسب الجنس فالعقود مذكر والأساور مؤنثة لذلك يميل كل منها نحو الآخر بشكل يشبه الزواج، وتسير "سولافا" في اتجاه عقارب الساعة-أي من الشرق إلى الغرب- بينما تسير "موالي" في الاتجاه المعاكس ويتم تبادل هاتين السلعتين في كل نقطة من نقاط الدائرة، ويتبع ذلك حفلات ومراسيم وطقوس وسحر، ويقوم الزائر وخاصة إذا كان من ذوي المكانة الرفيعة بتقديم هداياه من النقود، مثلا للشخص الذي اعتاد التبادل معه ويأخذ معه في مقابل ذلك بعض الأساور التي تهدى إليه نظير هديته في هذا الحفل الرسمي الكبير الذي أقامه أهل الجزيرة. والمشترون في عملية التبادل هذه يستلمون الأشياء لفترة من الزمن ولكنهم لا يستطيعون أن يحتفظوا بها إلى الأبد، لأنه يتوجب عليهم تمريرها في خط السير المرسوم لها كما تجري العادة.⁽⁸⁾

وقد يذهب الرجال في رحلات الكولا خالي الوفاض لا يحملون أي هدايا ليقدموها إلى شركائهم، بل ليقدموها بدهابهم تذكره بأن عليهم دين شرف قد آن أو أن سداده، يتحقق النجاح في الكولا كما يظن من ممارسوها بإجراء طقوس سحرية لتهدئة الشريك وجعله يشعر بأنه كريم يستطيع أن ينتظر، والأسس التي يقوم عليها هذا التبادل المؤجل هو أن كل هدية تقدم يجب أن تساوي الهدية المستلمة، وهذا واجب مقدم الهدية فهو الذي يجري التقديرات. ويحدث أحيانا أن يتأخر الشخص في رد الهدية المناسبة؛ ولذلك يتوجب عليه أن يقدم بعض الهدايا الصغيرة من حين لآخر حتى تتاح له فرصة تقديم الهدية المناسبة،⁽⁹⁾ والملفت فيها ما يدل على تفكير الناس في أمور الريح والكسب

والمساومة، ومع أن الكولا يصحبه أحيانا نظام مقايضة تجاري ثانوي لسلع تجارية ضرورية، وكذلك يصحبه تبادل للهدايا والخدمات إلا أن هذا التبادل التجاري ليس هو الأساس الذي تقوم عليه حلقة الكولا.

ويميز الأهالي بين الكولا والمقايضة ولذلك يعيرون أحيانا على الشخص طريقته في تبادل الكولا فيقولون أنه "يقوم بالكولا كما لو كان يقوم بعملية مقايضة"، فهذه العملية ليست عملية تجارية تقوم على المساومة أو إلى حساب أو تقدير قيمة الهدية. والمبدأ الآخر هو أن العرف والتقاليد تحتم على الرجل الذي يقبل هدية من شخص آخر أن يرد إلى المهدي ما يقابل هديته، ولكن لا يتعرض هذا الشخص لأي نوع من القهر أو القسر أو الضغط المادي لرد الهدية يمثلها⁽¹⁰⁾.

ويرى مالينوفسكي أن شريك الكولا يشتري المجد كما يشتري الصداقة، فشركاؤه الذين يعيشون في جزر نائية يستطيع أن يعتبرهم حلفاء ويتوقع منهم الحماية، فالمكاسب الاجتماعية بما فيها الحصول على الشهرة والصيت هي الأساس في هذه العملية، فالتهادي في هذه الحالة يؤكد الروابط الاجتماعية والهدايا لا تعطي اعتباراً وإنما هي تقدم لمقابلة بعض الالتزامات الاجتماعية المحددة.

هدفت الدراسة إلى تغيير تلك النظرة الضيقة لبعض علماء الاقتصاد والأنثروبولوجيا حول اقتصاد المجتمعات البدائية، حيث يُعتقد أن التبادل فيها يقوم أساساً على إشباع حاجات اقتصادية وأنه مبني على الربح والكسب، ولذلك حاول مالينوفسكي إثبات أن روح السوق التي توجد في المجتمعات الغربية تنعدم في المجتمعات البدائية. فنظام التبادل في المجتمعات البسيطة - جزر التروبرياندا - يعتمد أساساً على أهمية التبادل الرمزي للهدايا والتنازل عن الثروة وتجاوز ما هو مادي، وما يمكن أن يحققه من تلبية لحاجات الفرد النفسية والاجتماعية نتيجة للتوقعات والالتزامات التي يتضمنها هذا التبادل وهو ما أراد مالينوفسكي أن يعرضه.

لقد وجه انتقاد لمالينوفسكي من قبل الأنثروبولوجي البريطاني "إدموند ليتش" والذي يعتبر وظيفي على شاكلته من حيث الارتباط بالواقع الاجتماعي، فيتساءل "ليتش": لماذا حلقة الكولا مستمرة في حين أنها تكون بلا فائدة نفعية؟ ليملص مالينوفسكي ويرر موقفه بأنه ليس من مهمة الأنثروغرافي أن يدخل تفسيرات خاصة في مادته، ليقرر ليتش أن مالينوفسكي كان مخطئاً من خلال إقناعنا بأن هذا السلوك لا بد أن تكون له غاية نفعية.⁽¹¹⁾

ولعل هذا الانتقاد يمس ويشكك في فكر مالينوفسكي بوجه عام حول نظريته عن الثقافة، وينطلق فكره من بديهيتين رئيسيتين هما:

- كل ثقافة بصرف النظر عن مدى تقدمها أو تخلفها يجب أن تشبع الرغبات والحاجات البيولوجية للإنسان وبذلك توجد فرصة حقيقية للاستقرار ولتقدم المجتمع.

- الاتجاه الثقافي ما هو إلا تدعيم آلي وتلقائي للفيسيولوجيا البشرية.⁽¹²⁾

وعلى العموم، تشير الدراسات الأنثروبولوجية لمارسيل موس ومالينوفسكي وغيرهم التي حاولت فهم آليات المعاملات الاقتصادية والتبادل داخل القبائل البدائية، فتوصلت إلى أن تبادل الهدايا شكل من أشكال التبادل الاجتماعي التي تلعب دوراً مهماً في الحياة الاجتماعية، فيتلخص مبدأ التبادل في إعطاء شيء مقابل شيء آخر قد يكون مكافئاً أو غير مكافئ له، فهو إذن أخذ وعطاء وليس هناك تبادل بالعطاء فقط أو بالأخذ فقط، فلا يقتصر على تبادل الخيرات أو المنافع المادية بل يتعداه إلى تبادل رمزي للأفكار والمعتقدات وأنماط السلوك. وهو نفس ما يذهب إليه ابن خلدون إلى أن التبادل يجمع بين الاجتماعي والاقتصادي، وهو قيام الإنسان بتحصيل حاجاته وضروراته بدفع الأعراس عنها.

خلاصة القول أن ما تبدو عليه نظرية نظم التبادل في كثير من الثقافات الإنسانية البدائية طوعية وربما تلقائية، لكن في الواقع هي ملزمة تأخذ طابع الواجب، وعلى الرغم من بساطة هذا النظام إلا أنه ينطوي على كثير من العناصر والعلاقات المتشابكة، فالمبادلة يجب أن تتم في جو يسوده الرسميات والتكلف والجد والوقار ويجب الاستعداد له بالقيام بالشعائر المختلفة. ولعل كتابتنا لعنوان ورقتنا العلمية مصطلح نظام التبادل بدل أنظمة/نظم كانت مقصودة، لأنه وباستعراضنا لما سبق ستكتشف أن النظام منتشر ومشترك بين الثقافات المذكورة آنفاً والذي يتمثل في تبادل الهدايا أو التبادل الودي على حد تعبير كارل بولاني، والذي يتبعه التبادل الرمزي إلا أن الاختلاف يكمن في التسمية، فلك ثقافة لغتها الخاصة ومعتقداتها.

الهوامش:

* مارسيل موس MAUSS Marcel (1972 - 1950)، عالم اجتماع، واثروبولوجي فرنسي، تأثر بفكر أستاذه وقريبه إميل دوركهايم، دخل موس معترك الحياة العلمية والإنتاج المعرفي في خضم المنعطف الحاسم الذي عرفه الفكر السوسولوجي في فرنسا المتمثل في وضع قطيعة إستيمولوجية مع الفلسفة وانتشار الأفكار الوضعية وإمكانية دراسة المجتمع بأدوات العلوم الصحيحة. فكانت انطلاقة المبكرة في الكتابة السوسولوجية، ومن ثم انخرط في دراسة الأديان والسحر ومورفولوجيا الحياة الاجتماعية للإسكيمو والصلاة والهبة وتقنيات الجسد، وعلاقة علم الاجتماع بالعلوم الأخرى والأسس الأخلاقية للقانون والسياسة وغيرها من المواضيع، إضافة إلى مئات التعليقات النقدية على الكتب ومختلف البحوث المنشورة، وما ساعده في ذلك معرفته لعدة لغات منها الإنجليزية والألمانية واللاتينية والسنسكريتية والسلتية ولاسكندنافية.

إن أشهر أعمال موس والتي ساهمت بشكل كبير في إرساء أسس علمي الاجتماع والأثروبولوجيا، هي دراسته لظاهرة "الهبة" التي ترجمت لعدة لغات أوروبية وغيرها. (أنظر: مارسيل موس، بحث في الهبة: شكل التبادل وعلته في المجتمعات القديمة، ترجمة: المولدي الأحمر، المنظمة العربية للترجمة، ط 1، بيروت، يناير 2011، ص 10 و 11.)

1. مارسيل موس، بحث في الهبة: شكل التبادل وعلته في المجتمعات القديمة، مرجع سبق ذكره، ص 13.
 2. عدلي أبو طاحون، النظريات الاجتماعية المعاصرة، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، دون سنة، ص 401.
 3. عبد الله عبد الرحمن يقيم، "المدرسة الأثروبولوجية الفرنسية: مارسيل موس نموذجاً"، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 6، البحرين، 2011.
 4. خليل السعداني "كتاب الهبة لمارسيل موس" موقع أنثروبوس، تصفح يوم 2015/05/26، على الساعة 23:06
http://www.aranthropos.com/%D9%83%D8%AA%D8%A7%D8%A8
 5. مارسيل موس، مرجع سبق ذكره، ص 31.
- * ولد الأثروبولوجي البريطاني سنة 1884 بمدينة كراكاو KRAKOW في بولندا، وحصل على درجة الدكتوراه في الطبيعة والرياضيات 1908، ولكنه تحولت اهتماماته إثر قراءته لكتابات السير جيمس فريزر "FRAZER" ليسافر إلى إنجلترا 1910 ليتلمذ على يد وستمارك وغيره من خيرة العلماء. وفي سنة 1922 قام بنشر دراسته الشهيرة المذكورة أعلاه عن جزر التوريناند في شرق غينيا الجديدة، ويصح بذلك من أهم رواد الأثروبولوجيا الوظيفية. (أنظر: محمود أبو زيد، أعلام الفكر الاجتماعي والأثروبولوجي الغربي المعاصر، ج2، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2007، ص 131.)
6. محمود أبو زيد، نفس المرجع، ص 140.
 7. مارسيل موس، مرجع سبق ذكره، ص 252-253.
 8. علياء شكري وآخرون، دراسات في علم الاجتماع الاقتصادي والتنمية الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1991، ص 59.
 9. طالبات قسم الاجتماع، الهدية كشكل من أشكال العلاقات الاجتماعية: دراسة استطلاعية، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، 1421هـ، ص 6.
 10. علياء شكري وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص 60.
 11. ربيع كردي، البنائية الجديدة في علم الاجتماع والأثروبولوجيا، ط 1، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011، ص 20.
 12. محمود أبو زيد، مرجع سبق ذكره، ص 131.

